بزوغ الفجر

في يوم الجمعة، الثالث عشر من شهر رجب المبارك، وقبل بعثة محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله) باثنتي عشرة سنة، اشتد المخاض على فاطمة بنت أسد، فجاء بها أبو طالب إلى الكعبة المشرفة، وأدخلها فيها ثم قال لها اجلسي.. وخرج عنها فرفعت يدي الضراعة إلى العلي الأعلى سبحانه قائلة: «ربي إني مؤمنة بك، وبما جاء من عندك من رسل وكتب وإني مصدقة بكلام جدي إبراهيم الخليل (عليه السلام) وإنه بنى البيت العتيق، فبحق الذي بنى هذا البيت والمولود الذي في بطني إلا ما يسرت عليّ ولادتي(1).

ولم يمض على فاطمة غير ساعة حتى أعلنت أنها قد ولدت ذكراً، وهو أول مولود ولد في الكعبة المشرفة ولم يولد فيها بعده سواه تعظيماً له من الله سبحانه وإجلالاً(2)، وأسرع البشير إلى أبي طالب وأهل بيته، فأقبلوا مسرعين والبشر يعلو وجوههم..

وتقدم من بينهم محمد(3) (صلى الله عليه وآله) فضمه إلى صدره وحمله إلى بيت أبي طالب، حيث كان الرسول في تلك الآونة، يعيش مع خديجة، في دارهما منذ زواجه منها.

وانقدح في ذهن أبي طالب، أن يسمي وليده «علياً» وهكذا كان..

وأقام أبو طالب وليمة، على شرف الوليد المبارك، ونحر الكثير من الأنعام(4).

وقد حضر وليمته جمع حاشد من الناس: قدموا التهاني، وعاشوا ساعات من البهجة، أبدوا فيها مشاعرهم الفياضة، وأحاسيسهم السامية، نحو عميدهم شيخ الأبطح، ووليده المبارك..

ومرت الأيام سريعة، والوليد المبارك يتقلب بين أحضان والديه: أبي طالب، وفاطمة، وابن عمه محمد (صلى الله عليه وآله)، الذي كان دائم التردد على دار عمه، التي ذاق فيها دفء المودة، وشرب من ينابيع الإخلاص والوفاء الصافية، خلال سنوات صباه وشبابه.

أجل كان محمد (صلى الله عليه وآله) يتردد كثيراً على دار عمه، بالرغم من زواجه من خديجة، وعيشه معها في دار منفردة، وكان يشمل علياً بعواطفه، ويحوطه بعنايته، ويناغيه في يقظته، ويحمله على صدره.. ويحرك مهده عند نومه، إلى غير ذلك من مظاهر العناية والرعاية..

في كفالة رسول الله (صلى الله عليه وآله):

وبعد مضي ست سنوات على ولادة علي (عليه السلام) تعرضت قريش لأزمة اقتصادية خانقة، وقد كانت وطأتها شديدة على أبي طالب، إذ كان رجلاً ذا عيال كثيرة، وكهف يلوذ به المحتاج والفقير، بحكم مركزه الاجتماعي في مكة... أيرضى المصطفى (صلى الله عليه وآله) وبنو هاشم، أن تقسوا الحياة على عميدهم؟!

أقبل الرسول (صلى الله عليه وآله) على عمه العباس بن عبد المطلب، وهو أثرى بني هاشم يومها، فخاطبه بقوله: «... يا عم، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى فانطلق بنا إلى بيته لنخفف من عياله، فتأخذ أنت رجلاً واحداً، وآخذ أنا رجلاً فنكفلهما عنه..»(5).

وحظي رأي المصطفى (صلى الله عليه وآله) بالتأييد والرضاء من لدن عمه العباس، فأسرعا إلى أبي طالب، وخاطباه بالأمر، فاستجاب لما عرضا قائلاً: «إذا تركتما لي عقيلاً وطالباً، فاصنعا ما شئتما..»(6).

فأخذ العباس جعفراً...

وأخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله) علياً (عليه السلام)، وكان عمره يومئذ ستة أعوام(7)، وقد قال (صلى الله عليه وآله)، بعد أن اختار علياً (عليه السلام): قد اخترت من اختاره الله لي عليكم - علياً(8).

وهكذا عاش علي (عليه السلام) منذ نعومة أظفاره في كنف محمد (صلى الله عليه وآله): نشأ تحت رعايته، وشرب من ينابيع مودته وحنانه، ورباه وفقاً لما علمه ربه تعالى، ولم يفارقه منذ ذلك التاريخ، حتى لحق الرسول (صلى الله عليه وآله) بربه الأعلى..

حصيلة الأعداد النبوي:

أشار الإمام علي (عليه السلام) إلى أبعاد التربية التي حظي بها من لدن قائده الرسول (صلى الله عليه وآله)، ومداها وعمقها، وذلك في خطبته المعروفة بالقاصعة، إذ جاء فيها ما نصه: «وقد علمتم موضعي من رسول الله صلّى الله عليه وآله، بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا ولد، يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه وما وجد لي كذبه في قول، ولا خطأه في فعل.

«ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله، من لدن إن كان فطيماً، أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعه أتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به».

«ولقد كان يجاور في كل سنة (بحراء) فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام، غير رسول الله (صلى الله عليه وآله) وخديجة، وأنا ثالثهما. أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة..»(9).

والذي يستقري هذا النص، بإمعان، يتجلى له أن علياً (عليه السلام) قد حظي برعاية الرسول (صلى الله عليه وآله) وحدبه، وإيثاره أيام طفولته، فكان يمضغ الشيء ثم يضعه في فمه، ويضعه في حجره، ويضمه إلى صدره، ويعامله كما لو كان ولده الحبيب...

أما في صباه، وشبابه، فقد أنصب جهاد رسول الله (صلى الله عليه وآله) على تكوين شخصيته: إذ كان يأمره بالإقتداء به، وسلوك سبيله، وفي كل يوم يرفع له من أخلاقه علماً وعليّ كان يتبع أثره، أولاً بأول، كما يصف ذلك في حديثه.

ولهذا وذاك، فإن من خطل الرأي، أن لا يعتقد إمرء أن مسألة اختيار علي (عليه السلام) من لدن الرسول (صلى الله عليه وآله) كانت هادفة ابتداء لكي يأتي صورة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) في فكره ومواقفه وشتى ألوان سلوكه، بل حتى في مشيته(10).

فلقد كان الإمام علي (عليه السلام) من الصفا الروحي، والاستقامة الخلقية، وفقاً لما علمه رسول الله (صلى الله عليه وآله) بحيث كانت تتكشف له الكثير من حجب المستقبل المستور، فها هو يقول: «ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزول الوحي عليه، صلوات الله عليه، فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة فقال: هذا الشيطان قد آيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي، ولكنك وزير، وإنك لعلي خير..»(11).

فإن الشوط الذي قطعه في مضمار التقرب إلى الله سبحانه، وامتثال أوامره، وتجسيد متطلبات رسالته، رشحه لأن يكون وزيراً للنبوة، وهو مقام، لا يناله إلا من قطع شوطاً بعيداً، باتجاه قمة الفضيلة والتقى، فلم يفصله عن

الرسول (صلى الله عليه وآله) إلا درجة النبوة، فارتقى منصة الوزارة بحق وجدارة، وهكذا كان علي...

في كنف الوحي:

وإذا كان الإمام (عليه السلام) قد عاش ستة سنوات، في أحضان والديه وإخوته، وكان لرسول الله (صلى الله عليه وآله) دور بارز في رعايته، طوال تلك السنوات الندية من عمره (عليه السلام). فإن رعاية علي وتربيته، صارت من اختصاص المصطفى (صلى الله عليه وآله) دون منازع، منذ السنة السادسة، حيث انتقل (عليه السلام) إلى داره (صلى الله عليه وآله) على أثر الضائقة المالية التي ألمت بأبيه أبي طالب، كما ذكرنا.

ومنذ تلك السن المبكرة عاش علي (عليه السلام) مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) في بيته قبل الدعوة، حيث قضى تحت رعايته سنوات الصبا وسنوات التفتح على الحياة، وخلالها عاش الإمام (عليه السلام) كل التطورات التي اكتنفت حياة الرسول (صلى الله عليه وآله)..

فعلي لم يحظ بالتربية المألوفة، التي يحظى بها غالباً طفل من لدن أبيه، أو صغير من لدن أخيه الأكبر، وإنما كان إعداده وتربيته من نوع خاص، وحسبك أنه كان يتبع محمداً (صلى الله عليه وآله) حتى في ساعات اختلائه في غار حراء.. ويشهد التطور الروحي والفكري الذي كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يمر فيه، وها هو (عليه السلام) يستذكر تلك الأيام الخالدة وذلك الشطر الحساس من حياته، فيقول: «... ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه، ولا يراه غيري»(12) - كما ألمحنا إلى ذلك- أجل كان (عليه السلام) يعيش التحول الروحي الهائل، الذي شهدته نفس المصطفى (صلى الله عليه وآله)، حتى اشرق عليه وحي السماء المبارك.

ولقد كان للمستوى الروحي والخلقي البعيد المدى الذي سمت إليه نفس علي (عليه السلام)، أن شعر بالتحول الكبير، الذي جرى في عالم الغيب، من انهزام للشيطان، بعد يأسه من أن يُعبد، فور بعثة الرسالة الخاتمة... فلقد شهد علي إرهاصات النبوة التي شهدها أستاذه ومعلمه الرسول (صلى الله عليه وآله)، وعاشها كما عاشها بملء كيانه، حين سطع الهدى، وتلقى رسول الله (صلى الله عليه وآله) أول بيان من السماء، لتكليفه بحمل الرسالة.

(إقرَأ بِاسمِ رَبِّكَ الّذي خَلَقَ خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ إقرَأ وَربُّكَ الأكرَم الّذي عَلَّمَ بالقلم علَّمَ الإنسَان مَا لَمْ يَعْلَمْ) (العلق1-5).

1 - كشف الغمة ج1 - فصل ذكر الإمام علي (عليه السلام).

2 - مستدرك الحاكم ج3 ص483 والكفاية للحافظ الكنجي الشافعي وشرح الخريدة الغيبية في شرح القصيدة العينية لشهاب الدين السيد محمود الألوسي ص15 ونور الأبصار للشبلنجي ص76 ومطالب السؤول ص11 لمحمد أبي طلحة الشافعي والمناقب للأمير محمد صالح الترمذي. نقلاً عن الغدير ج6 من 22 إلى 38 لعبد الحسين الأميني ط3 سنة 1967 بيروت.

3 - الفصول المهمة في معرفة الأئمة/ لابن الصباغ المالكي/ الفصل الأول ص13.

4 - البحار ج35 ص18.

5 - الفصول المهمة/ لابن الصباغ الفصل الأول ص14 وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ص151.

6 - سيرة ابن هشام ج1 باب ذكر أن علي بن أبي طالب أول ذكر أسلم ص284، وبحار الأنوار ج35 ص44 وشرح النهج ج1 ص15.

7 - في رحاب علي/ خالد محمد ص46 ط2 دار الأندلس بيروت وشرح النهج ج1 ص151.

8 - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج1 ص15 نقلاً عن البلاذري والأصفهاني.

9 - نهج البلاغة تبويب صبحي الصالح ط1971 ص300.

10 - علي بن أبي طالب عبد الفتاح عبد المقصود ج1 ص39.

11 - نهج البلاغة ص301 (الخطبة القاصعة). تبويب د. صبحي الصالح.

12 - الخطبة القاصعة من نهج البلاغة ص301 تبويب د. صبحي الصالح.

أول المؤمنين

حين تلقى الرسول (صلى الله عليه وآله) بيان التكليف الإلهي، بحمل الرسالة، عاد إلى بيته فأطلع علياً(1) (عليه السلام)، بأمره فاستقبله (عليه السلام) بالتصديق واليقين، كذلك فعلت خديجة الكبرى، فانبثق من أجل ذلك أول نواة لمجتمع المتبقى في الأرض.

على أن يجدر بنا، أن نعي أن علياً (عليه السلام) لم يدعه الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى الإسلام كما دعا غيره فيما بعد، أبداً، لأن علياً (عليه السلام) كان مسلماً على فطرة الله تعالى، لم تصبه الجاهلية بأوضاعها، ولم يتفاعل مع شيء من سفاسفها، وكل الذي كان: أن علياً (عليه السلام) قد أطلعه الرسول القائد (صلى الله عليه وآله) على أمر دعوته ومنهج رسالته، فأعلن تصديقه وأيقن بالرسالة الخاتمة، وبادر لتلقي توجيهاته المباركة تلقي تنفيذ وتجسيد.

ولهذا يقال (كرم الله وجهه)

فإن علياً (عليه السلام) كان مؤهلاً -كما بينا في مطلع الحديث- لاتباع رسول الله (صلى الله عليه وآله) في دعوته، لأنه (صلى الله عليه وآله) كان قد أنشأ شخصيته، وأرسى لبناتها الأساسية.

ولا أظنني أضيف جديداً إذا قلت أن الإمام (عليه السلام) لم يفاجأ بأمر الدعوة المباركة، طالما عاش في كنف رسول الله (صلى الله عليه وآله) وتفيأ ظلاله، فالمصطفى (صلى الله عليه وآله) -كما نعلم- كان يعبد ربه تعالى وينأى عن الجاهلية في مفاهيمه وسلوكه وعلاقاته، قبل أن ينزل عليه وحي السماء، بأول سورة من القرآن الكريم(2).

وعلي (عليه السلام) كان مطلعاً على عبادة أخيه رسول الله (صلى الله عليه وآله) وممارساته وتحولاته الروحية والفكرية، فكان يتعبد معه، وينهج نهجه، ويسلك سبيله، في ذلك السن المبكر من عمره..

أما حين فاتحه رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأمر الدعوة الإلهية، فقد لبى النداء بروحه ووعيه وكل جوارحه، دون أن يباغت في الأمر، وإن كان هناك جدة في المسألة فإنما هي في الكيفية التطبيقية للرسالة ودرجة المسؤولية الواجب تحملها أو تفاصيل الأحكام.. وحين بُلّغ رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأمر التكليف الإلهي لحمل الدعوة المباركة، بلغ كذلك، أن تنصب دعوته أولاً على الخاصة من أهل بيته (عليهم السلام)، وقد أشار ابن هشام في سيرته لذلك بقوله: «فجعل رسول الله (صلى الله عليه وآله) يذكر ما أنعم الله عليه، وعلى العباد به، من النبوة سرّاً إلى من يطمئن إليه من أهله..»(3). ومن أجل ذلك فاتح علياً وخديجة بالدعوة -كما ذكرنا- وبعدهما زيد بن حارثة، وبقي أمرها طي الكتمان لا يعلمه غير هؤلاء، وبعض الخاصة من أهل البيت (عليهم السلام).

وقد أشار الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) في حديث له حول إسلام جده علي بن أبي طالب (عليه السلام) بقوله: «... ولقد آمن بالله تبارك وتعالى وبرسوله (صلى الله عليه وآله) وسبق الناس كلهم إلى الإيمان بالله وبرسوله والى الصلاة ثلاث سنين»(4).

ولأسبقيته في حمل الدعوة أشار الإمام (عليه السلام) في حديث جاء فيه «.. ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة، وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح

النبوة..».

وبعد أن تخطت الدعوة مرحلة دعوة الخاصة من أهل البيت (عليهم السلام) جاءت مرحلة دعوة من يتوسم رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيهم القبول لدعوته، فانخرط عدد من الناس في سلك الدعوة، كان أغلبهم من الشباب، وكانت لقاءاتهم من أجل قراءة القرآن الكريم، والتعرف على أحكام دين الله تعالى تتم بصورة سرية..

أول الدعاة:

ثم أذن الله عز وجل لرسوله (صلى الله عليه وآله) بدعوة عشيرته الأقربين من بني هاشم، ليوسع من مدار الدعوة بذلك، فقال تعالى:

(.. وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ. وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِن المُؤْمِنِينَ. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعمَلُونَ) (الشعراء/ 214–216).

فلما تلقى رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمر ربه الأعلى بإنذار عشيرته الأقربين، أمر علياً (عليه السلام) أن يدعوهم إلى طعام عنده، فحضروا إلى دار رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكانوا أربعين رجلاً.

وبعد أن تناولوا طعامهم، بادرهم الرسول (صلى الله عليه وآله) بقوله «.. بابني عبد المطلب، أن الله بعثني إلى الخلق كافة، وبعثني إليكم خاصة، فقال: «وأنذر عشيرتك الأقربين» وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان، ثقيلتين في الميزان، تملكون بهما العرب والعجم، وتنقاد لكم بهما الأمم وتدخلون بهما الجنة، وتنجون بهما من النار، شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله» فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويوازرني عليه، وعلى القيام به يكن أخي ووصيي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي..»(5).

وبين تنديد أبي لهب، وتحذيره للرسول (صلى الله عليه وآله) من الاستمرار بالدعوة من جهة، وتأييد أبي طالب له ومخاطبته الرسول (صلى الله عليه وآله) بقوله: «فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك»(6).

أقول من خلال التأييد، الذي أعلنه أبو طالب، والتنديد البليد الذي أعلنه أبو لهب، وقف علي بن أبي طالب (عليه السلام) وكان أصغر الحاضرين سناً فقال: «أنا يا رسول الله أوازرك على هذا الأمر» فأمره الرسول (صلى الله عليه وآله) بالجلوس، ولما لم يجبه أحد نهض علي ثانية والرسول (صلى الله عليه وآله) يجلسه..

وأعاد الرسول (صلى الله عليه وآله) دعوته إلى قومه، فلم يجبه أحد، وكان صوت علي (عليه السلام) وحده يلبي الدعوة، ويهدر بالمؤازرة والنصرة، فمزق صمتهم بصلابة إيمانه، وقوة يقينه، وحيث لم يجب رسول الله (صلى الله عليه وآله) أحد للمرة الثالثة.. التفت إلى مجيبه الوحيد، قائلاً: «اجلس فأنت أخي ووصيي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي»(7).

فنهض القوم من مجلسهم، وهم يخاطبون أبا طالب: «ليهنئك اليوم أن دخلت في دين ابن أخيك، فقد جعل ابنك أميراً عليك».

مواجهة الجاهليين:

ودخلت الدعوة إلى الله مرحلة المواجهة –بعد إنذار العشيرة– وأول من قاد ردّ الفعل أبو لهب وزوجته، وكانا يعترضان رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويزرعان المشاق في طريقه، لإثنائه عن دعوته المباركة ولكن دعوة الله سبحانه مضت، تشق طريقها في المجتمع الجاهلي

المتحجر ذاك، فقد انتقلت بعد إبلاغ العشيرة إلى الدعوة العامة، حيث وقف رسول الله (صلى الله عليه وآله) عند البيت الحرام، وخاطب الجموع بأنه رسول الله إليها(8)..

وبعد الدعوة تزايد عدد المؤمنين وأغلبهم من الشباب ومن شتى قطاعات المجتمع المكي..

وكان لتزايد عدد المؤمنين برسالة الله تعالى أثر بالغ على موقف الجاهليين، فقد سلكوا أسلوب الإرهاب للرعيل الأول من المؤمنين، فكانت كل قبيلة وكل بيت يتصدى لمن فيه من المؤمنين بالتعذيب والاضطهاد(9)، والمؤمنون يزدادون صموداً وإيماناً بصوت الحق والهدى، الذي دوى به صوت رسول الله (صلى الله عليه وآله) فرددته النفوس الظمأى إلى الخير والانعتاق..

وبسبب التعذيب الجسدي الوحشي، الذي صب على المؤمنين، كانت هجرة الحبشة التي قادها جعفر بن أبي طالب والذي يكبر علياً (عليه السلام) بعشر سنين، وكان لجعفر وحكمته الأثر الفعال في إفشال مخطط قريش في إثارة ملك الحبشة على المهاجرين، لطردهم من بلاده.

أبو طالب يتصدى لأعداء الرسالة:

وإذا كانت قريش قد تصدت للسابقين من المؤمنين بالعنف والاضطهاد، فإنها ليست قادرة على التصدي لرسول الله (صلى الله عليه وآله)، قائد الدعوة ورسولها، بنفس المستوى، لعلمها أن أبا طالب شيخ الأبطح، يحول دون تحقيق أي لون من ألوان التصدي والإرهاب لرسول الله (صلى الله عليه وآله).

فأبو طالب، رجل مرهوب الجانب، ذو سطوة ونفوذ، ليس في بني هاشم وحدهم، وإنما في قبائل مكة كلها.

وقد كان الرجل سند الدعوة وجدارها الشامخ، الذي تستند إليه منذ تباشير فجرها الزاهر.. وقريش، كانت تدرك ذلك تماماً.

ومن أجل ذلك، سلكت أسلوب المفاوضة، والمساومة والإغراء: تفاوض الدعوة والرسالة في شخص الرسول (صلى الله عليه وآله) مرة، وفي شخص أبي طالب مرة أخرى.. فحين كانت تعرض المال والسلطان على رسول الله (صلى الله عليه وآله)، مقابل تركه الدعوة، والتنازل عن الرسالة، فإنها كانت تفاوض أبا طالب، وتحاوره بشأن دعوة الرسول (صلى الله عليه وآله)، طالبة أن يستعمل نفوذه، بالضغط عليه، لترك رسالته، وتهدده باحتدام الصراع بينه وبين قريش كلها، إذا لم يخل بينهم وبين رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ويكف عن إسناده له.

بيد أن أبا طالب، كان يعلن إصراره على التزام جانب رسول الله (صلى الله عليه وآله)، والذود عنه، مهما غلا الثمن، وعظمت التضحيات.

أبو طالب في الحصار مع رسول الله (صلى الله عليه وآله):

ولما استبد اليأس بقريش، من أن أبا طالب لن يفرّط بمحمد (صلى الله عليه وآله) ودعوته، عقد زعماؤها اجتماعاً طارئاً في دار الندوة -وهي دار قصي بن كلاب التي اعتادت قريش أن تجتمع فيها للتشاور في القضايا المصيرية من حياتها. وتوصل المجتمعون إلى قرار، يقضي بحصار بني هاشم، ومن يلوذ بهم، حصاراً اقتصادياً واجتماعياً، ينصب على عدم مبايعة بني هاشم أو الشراء منهم، أو تزويجهم، أو التزوج منهم، وقد ذيل قرار المقاطعة ذلك بأربعين توقيعاً لزعماء قريش...

ودخل بنو هاشم شعب أبي طالب، بناء على أوامر من عميدهم أبي طالب ذاته، حماية لأنفسهم من سطوة قريش، وأصبح من المتعذر عليهم الخروج إلى مكة، إلا في موسم العمرة في رجب، وموسم الحج في ذي الحجة من كل عام. وبالنظر لتفاقم الموقف بين بني هاشم وقريش، شدد أبو طالب الحراسة على الشعب، بعد تحصينه، خشية هجوم قريشي مباغت.

واستمر الحال ببني هاشم –بما فيهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلي ابن أبي طالب (عليه السلام) هكذا ثلاث سنين – وقيل أربعاً – وقد عانوا من شظف العيش، والحرمان والفاقة، وما يدمي القلب، ويحز في النفس. ولك أن تقدر حجم ما عانى المحاصرون من ضيق، إذا علمنا أن قريشاً قد شددت عليهم الحصار بشكل كامل، فقطعت عنهم التموين، وكانت غالباً ما تضاعف أثمان البضائع، ليعجز بنو هاشم عن شرائها، بشكل أدى بهم إلى المجاعة الحقيقية، حتى أن صراخ أطفالهم وتضورهم جوعاً كان يسمع من بعيد.

وبعد أن تصرمت السنون الثلاث، بعسرها وآلامها وفاقها، أخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) عمه أبا طالب أن صحيفة المقاطعة التي كتبتها قريش قد أتت دودة الأرضة على ما فيها من ظلم وقطيعة فأكلتها، إلاّ عبارة «باسمك اللهم» فأسرع أبو طالب إلى قريش، قائلاً:

«.. إن ابن أخي أخبرني أن الله قد سلط على صحيفتكم الأرضة فأكلتها، غير اسم الله، فإن كان صادقاً نزعتم عنه سوء رأيكم، وإن كان كاذباً دفعته إليكم..»(10).

قالوا: قد أنصفتنا.. ثم فتحوها، فإذا هي كما قال.. ووقع نزاع حاسم بين قريش، نتج عنه تمزيق الصحيفة، وانتهاء المقاطعة، ورفع الحصار عن بني هاشم، وقد كان لإفشال مشروع الحصار بذلك الشكل الإعجازي الجلي أثره في كسب الدعوة للمؤيدين، والأنصار في مكة..

أرأيت كم من التضحيات في سبيل رسالة الله، بذل بيت علي (عليه السلام)؟

فإذا كان علي أول من لبى صوت الحق، وظل مجاهداً في الصف الأمامي من الجبهة الإسلامية طوال حياته، فإن أباه قد ضحى حتى بمكانته الاجتماعية التي كان يحظى بها من لدن قريش، وذاق المحن من أجل رسالة الله تعالى، حتى كان بحق الدرع الواقي للرسول (صلى الله عليه وآله)، والدعوة في حين كانت المكانة الاجتماعية: حلم الرجال، ومبتغاهم في ذلك المجتمع القبلي..

وهكذا كان جعفر بن أبي طالب، أخو علي (عليه السلام) الذي دشن حياته الإسلامية بقيادة موكب الهجرة الأولى إلى الحبشة وتوجهاً بالشهادة في غزوة مؤتة.. ففاز بلقب الطيار مع الملائكة في الجنة كما أخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) بذلك(11)..

ولعظيم حب رسول الله (صلى الله عليه وآله) لجعفر، إنه حين قدم المدينة المنورة من الحبشة، وذلك يوم فتح خيبر، استقبله الرسول (صلى الله عليه وآله) وقبل ما بين عينيه، وهو يقول (صلى الله عليه وآله): «ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً: بقدوم جعفر؟ أم بفتح خيبر»(12).

إلى دار الإسلام:

.. وفي خضم الصراع العنيف، الناشب بين الدعوة الإلهية المباركة، والجاهلية الرعناء، فجع الإسلام بفقد مؤمن قريش: أبي طالب (رض) فاهتز رسول الله (صلى الله عليه وآله) للحادث الأليم، وعلم أن قريشاً ستعمل على تصعيد حملتها على الدعوة، وعلى شخصه الكريم بالذات..

وإذا كانت قريش تخش أبا طالب، ومركزه الاجتماعي، فيما مضى، فقد صفا لها الجو بعد موته، وها هو رسول الله (صلى الله عليه وآله) يفقد سنده الشامخ، ويصاب بعده بفاجعة أخرى، لا تقل في تأثيرها عليه عن الأولى، فقد توفيت زوجته الوفية خديجة، حتى دعا العام الذي فقدهما فيه «عام الحزن».

وللأهمية البالغة، التي يحتلها أبو طالب، في سير الحركة التاريخية لدعوة الله تعالى، صرح رسول الله (صلى الله عليه وآله) بقوله:

«ما زالت قريش كاعةً عني حتى مات أبو طالب»(13).

وصعدت قريش حملتها على رسول الله (صلى الله عليه وآله) والسابقين من المؤمنين، فاتحة رسول الله (صلى الله عليه وآله) للبحث عن أرض غير مكة، تستقر عليها دعوة الله، فتنمو عليها شجرة الهدى، وراح يتصل بالقبائل، ويعرض أمره على الناس في أطراف مكة... ثم زار الطائف، واتصل بزعماء قبائلها، فلم يستجب له أحد ذو أثر اجتماعي، بيد أن اليأس لم يتسرب إلى نفسه، واستمر في عرض نفسه على الناس من خارج مكة، حتى التقى في موسم الحج بنفر من أهل يثرب، وفاتحهم بأمر الدعوة، فاستجابوا له، ولبوا دعوة الله، وعادوا يحملون كلمة الله إلى قومهم.

وفي اليوم التالي قدم منهم اثنا عشر رجلاً، فبايعوه على الإيمان وحمل الرسالة، فأرسل لتعليمهم أحكام دين الله تعالى: مصعب ابن عمير، فمكث فيهم سنة كاملة، ويدعوهم إلى الله، ويؤدبهم بتعاليم رسالته، ويقرئهم القرآن الكريم فدخل الكثير من الناس في الإسلام، واستجابوا لنداء الدعوة المباركة..

وفي موسم الحج حضر منهم إلى مكة وفد كبير يقوده مصعب بن عمير، فالتقوا برسول الله (صلى الله عليه وآله)، وبايعوه على النصرة أن هاجر هو إلى بلدهم..

وتنزل أمر الله تعالى يدعو المسلمين إلى الهجرة، فزحفت مواكب المهاجرين صوب الدار الجديدة مخلفين وراءهم المال والوطن وعلائق الدم والقربى.

ولئن كانت الدعوة قد أوشكت على الدخول في مرحلة جديدة من مراحل مسيرتها العتيدة، فإن قريشاً، قد اجتمعت في دار الندوة للتشاور بشأن رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالذات، فتوصل قادتها إلى قرار يقضي باغتيال جماعي لرسول لله (صلى الله عليه وآله) يتولاه من كل قبيلة رجل منها وأن ينفذ الاغتيال ليلاً.

وكشف جبريل (صلى الله عليه وآله) لرسول الله (صلى الله عليه وآله) أوراق الجريمة التي أجمعت قريش على اقترافها.

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ) (الأنفال/ 30).

في فراش رسول الله (صلى الله عليه وآله):

وأبلغ جبريل (عليه السلام) رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأمر الله تعالى بالهجرة إلى المدينة المنورة.. وحين انتشر الظلام، أسرع المتآمرون لتطويق بيت الرسول (صلى الله عليه وآله) للحيلولة دون خروجه.. وعندها جاء دور علي (عليه السلام) حيث أمره رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن ينام على فراشه، ويلتحف ببردته، وخرج صلى الله عليه وآله من بينهم وهو يتلو قوله تعالى:

(وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ) (يس/ 9).

فلم يشاهده أحد من المشركين:

وعند طلوع الفجر اقتحم المتآمرون دار رسول الله (صلى الله عليه وآله) لتنفيذ جريمتهم واتجهوا لغرفته، فوثب علي (عليه السلام) في وجوههم قائلاً: ما شأنكم؟

قالوا: أين محمد؟

قال «أجعلتموني عليه رقيباً؟ ألستم قلتم نخرجه من بلادنا فقد خرج عنكم..»(14).

فانقلبوا خاسرين وباؤوا بالفشل الذريع... ثم بدا لهم أن يبحثوا عن الرسول (صلى الله عليه وآله) ويجدوا في طلبه في الجبال والوديان، واصطحبوا لذلك أبا كرز، وهو رجل شهير بعلم معرفة الأثر، وبالفعل استطاع أبو كرز أن يتابع أثر الرسول (صلى الله عليه وآله) حتى أوصل القوم غار جبل «ثور» مؤكداً لهم أن محمداً (صلى الله عليه وآله) قد وصل في نهاية شوطه إلى ذلك الغار، وإذن فلا بد أن يكون قد عرج إلى السماء أو اختفى تحت الأرض، وحيث أن الله سبحانه قد بعث عنكبوتاً فنسجت بيتاً لها على باب الغار، فإن المتآمرين لم يخطر ببالهم أن الرسول (صلى الله عليه وآله) في داخل الغار الذي يقفون على بابه، وهكذا صرف الله عقولهم فولوا الأدبار..

وعند حلول الليلة الثانية أسرع علي (عليه السلام) وهند بن أبي هالة إلى الغار للاتصال بالرسول (صلى الله عليه وآله) تحت جنح الظلام(15) وتحاور رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع علي (عليه السلام) حول مستلزمات الهجرة.. فأوصاه بأداء الأمانات إلى أهلها، وباللحوق به (صلى الله عليه وآله) بعد ذلك وأوصاه أن يحمل معه فاطمة الزهراء (صلى الله عليه وآله) ومن معها من نساء أهل البيت..

الانتظار في قبا:

وبعد أيام من مسيرة الركب وصل الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى «قبا» حيث نزل عند كلثوم بن الهدم أحد زعماء بني عمرو بن عوف(16) وهناك أقام الرسول (صلى الله عليه وآله) مسجد قبا، ومكث ينتظر قدوم علي بن أبي طالب (عليه السلام)(17).

إذ كتب إليه كتاباً يأمره بالمسير إليه، وقد حمل الكتاب أبو واقد الليثي، وحيث أن علياً (عليه السلام) قد أدى ما أوصاه به رسول الله (صلى الله عليه وآله) قبل هجرته وأعاد الأمانات التي كانت لدى الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى أهلها، فقد عجل باللحوق بأخيه رسول الله (صلى الله عليه وآله) فبادر إلى إعداد ركائب لحمل النساء فاطمة بنت رسول الله، وفاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت حمزة وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب.

ثم أمر ضعاف المؤمنين أن يتسللوا ليلاً إلى ذي طوى وخرج هو والفواطم وأيمن وأبو واقد الليثي نهاراً(18).

ولم تمض غير أيام قليلة حتى وصل ركب علي والفواطم إلى قبا، فاستقبلهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعانق علياً (صلى الله عليه وآله) وبكى رحمة به – وذلك لما ألم به من إرهاق وأذى.

وبعد مقدم علي (عليه السلام) على رسول الله (صلى الله عليه وآله) بيومين ارتحل الرسول (صلى الله عليه وآله) وبصحبته علي (عليه السلام) ومن معه من المهاجرين إلى المدينة المنورة..

وكان الركب النبوي يستقبل استقبالاً مهيباً عند كل حي يمر به.. حتى إذا وصل الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى المكان الذي أقيم مسجده فيه توقفت راحلته عن المسير فنزل عنها، وأقام ضيفاً عند أيوب الأنصاري (ره)..

ثم بادر إلى بناء المسجد والدور الخاصة به وبأهل بيته، وفي طليعتهم علي (عليه السلام) إذ أقيمت حجرته بجنب حجرة عائشة.

1 - إضافة إلى كتب التاريخ التي تصرح بأن علياً أول الناس إسلاماً فهناك عدة أحاديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) تجسد هذه الحقيقة. راجع المستدرك ج3 ص136 والخطيب البغدادي في تاريخه ج2 ص81 ومناقب الخوارزمي وحلية الأولياء ج1 ص66 والسيرة الحلبية ج1 ص 285 وسيرة زيني دحلان في هامش الحلبية ج1 ص188: نقلاً عن الغدير ج3 ص22 - 242 ط3/ 1967 بيروت.

2 - يراجع كتابنا/ سيرة المصطفى (صلى الله عليه وآله) ط بيروت.

3 - ج1 ص259 مصطفى الحلبي وأولاده بمصر 1936 تحقيق مصطفى السقا وجماعة.

4 - الروضة من كتاب الكافي ج8 حديث إسلام علي (عليه السلام) وهناك أحاديث بهذا الصدد يرويها كل من النسائي وابن ماجة والحاكم والطبري في تاريخه والرياض النضرة ج2 ص158 وكتاب صفين لنصر بن مزاحم ص100 وغيرها راجع 221 - 240 ج3 من الغدير، على أن تلك الروايات تشير إلى أن إيمان علي وعبادته قد سبق فيها الناس بسبع أو تسع سنين، وهي لا تخالف القول بثلاث سنين أبداً فإن المراد بأنه سبق بالتصديق بالإسلام بعد الدعوة بثلاث سنين وسبق سواه بالإيمان والتعبد مع الرسول (صلى الله عليه وآله) في مرحلة الأعداد التي أشار إليها في خطبة القاصعة بسنوات أخرى..

5 - أخرج الحديث كل من: ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردوية، وأبي نعيم، والبيهقي في سننه وفي دلائله، والثعلبي، والطبري في تفسيرهما لسورة الشعراء من تفسيريهما الكبيرين، وأخرجه الطبري في تاريخ السيرة الحلبية ج1 ص381، والطحاوي، والضياء المقدسي في مختاره، وأحمد بن حنبل ج1 ص111 وص159، والنسائي في خصائصه ص6، وكنز العمال ج6 الحديث رقم 6008، والمفيد في إرشاده في مناقب علي (عليه السلام) وغير هؤلاء كثير وكلهم أوردوه بألفاظ متقاربة نقلاً عن المراجعات للسيد شرف الدين ص124 وما بعدها.

6 - صور من حياة محمد/ أمين دويدار ص140، وفقه السيرة/ للغزالي ص102 - 103، يراجع الهامش أعلاه.

7 - صور من حياة محمد/ أمين دويدار ص140، وفقه السيرة/ للغزالي ص102 - 103، يراجع هامش رقم (1) ص22 من هذا الكتاب.

8 - يراجع القسم الأول من كتاب سيرة المصطفى (صلى الله عليه وآله) ط بيروت للمؤلف.

9 - المصدر السابق - يراجع القسم الأول أيضاً.

10 - بحار الأنوار ج19 باب دخول الشعب، طبقات ابن سعد ج1 ص173، 192، سيرة ابن هشام ج1 ص399 - 404 وعيون الأخبار لابن قتيبة ج2 ص151، تاريخ ابن كثير ج3 ص84، 96، 97، السيرة الحلبية ج1 ص357 - 367 الكامل لابن الأثير/2 ص36.. نقلاً عن الغدير ج7 ص363 - 366.

11 - بحار الأنوار ج21 باب غزوة مؤتة، ابن سعد في طبقاته ج4 ص23، وأسد الغابة ج1 ص287، ابن أبي الحديد ج3 ص407، البداية والنهاية ج4 ص256، الاستيعاب ج1 ص81، نقلاً عن مقاتل الطالبيين لأبي

الفرج الأصبهاني باب ذكر مقتل جعفر بن أبي طالب ص10 وما بعدها ط2/ 1970.

12 - نفس المصدر السابق.

13 - تأريخ الطبري ج2 ص222: تأريخ ابن عساكر ج1 ص284، مستدرك الحاكم ج2 ص622، تأريخ ابن كثير ج3 ص122: «نقلاً عن الغدير ج7 ص376»، كشف الغمة في معرفة الأئمة ج1 ص16... وغيرها.

14 - تفسير سورة الأنفال آية 30 يراجع الميزان ج9 بحث روائي ص80.

15 - أعيان الشيعة ج3 ط3 ص155.

16 - بحار الأنوار ج9 والروضة من الكافي ج8 ص339، للكليني ط/ طهران.

17 - الفصول المهمة في معرفة الأئمة/ ابن الصباغ المالكي «فصل في شيء من شجاعته ص28».

18 - أعيان الشيعة ج3 ط3 ص155 «هجرته إلى المدينة».

مهمات ما بعد الهجرة

استقبلت المدينة عهداً جديداً من تاريخها بوصول رسول الله (صلى الله عليه وآله) إليها حتى أرسى (صلى الله عليه وآله) قواعد دولة القرآن، وعمل على تحصينها لتكون مناراً يشع نور الحق إلى الآفاق فيبدد ظلام الجاهلية الحالك..

وإذا كانت الدعوة بعد الهجرة قد امتلكت دولة وفرت لها الكثير من شروط الحماية والتحصين، فإن ذلك لا يعني بحال أن مكر الأعداء وخططهم لإطفاء نور الإسلام قد انتهى بل العكس هو الذي كان، فالجاهلية بقواها المتعددة وواجهاتها الكثيرة قد أجمعت على حرب الإسلام ودولة الإسلام، وقد دخلت فصائل كثيرة إلى الميدان لغير صالح الإسلام، بعد أن أدركت عملياً أن وجودها في خطر بعد امتلاك الإسلام الدولة التي ترعاه ويحقق أهدافه من خلالها..

وهكذا كانت مرحلة ما بعد الهجرة قد وضعت المسلمين أمام مسؤوليات أشمل ميداناً وأبعد خطراً، حيث بناء الدولة وحمايتها وبناء المجتمع وترصينه، وصد الأعداء ونشر العقيدة وغير ذلك..

والصراع بطبيعته قد تحول بدوره من صراع أفراد أو إرهاب

قبائل، وأصحاب وجاهات لأفراد عزل لا يملكون غير دينهم وثقتهم بالله تعالى.. إلى صراع عسكري منظم بين قوى جمعتها المصالح والأهواء ولو آنياً لحرب الإسلام العظيم باعتباره –وبتقديرهم– الخطر الماحق لوجودهم الفكري والعملي.. وقد تفجر الصراع العسكري بشكل لم يشهد له التاريخ مثيلاً.

وحسبك أن دولة القرآن قد شهدت عبر عشر سنوات عاشها الرسول (صلى الله عليه وآله) بعد هجرته إلى المدينة عشرات من الأعمال العسكرية بين حروب دفاعية أو هجومية أو غزوات أو سرايا أو غيرها.. قدم المسلمون خلالها الكثير من الضحايا ولاقوا صنوفاً من البلاء بيد أنهم أنهوا الوجود العملي للجاهلية العربية.. فشملت دولة الإسلام الجزيرة العربية دون منازع..

وإذا تتبعنا تلك المرحلة الدقيقة من عمر الرسالة الخاتمة لوجدنا أن دور علي بن أبي طالب (عليه السلام) فيها لم يرق إليه دور قط.. فهو في جميع حروب الإسلام مع أعدائه كان يفوز بقصب السبق لا من باب اشتراكه في الحرب أو قتاله فيها، وإنما بما قدمه من بطولة وتضحية يسبق بها سواه ومن المناسب هنا أن نذكر طرفاً من بطولته (عليه السلام):

بأس في الحرب

1 - في معركة بدر:

كان عدد المسلمين يساوي ثلث جيش عدوهم وكانت العدة لدى المسلمين ليست ذات بال فعلى سبيل المثال كانوا لقلة ركائبهم يركب منهم الاثنان والثلاثة والأربعة على بعير واحد، ولم يكن منهم فارس غير المقداد بن الأسود الكندي، وكانت أسلحة بعضهم من جريد النخل ونحوه..

حتى إذا اضطرمت نار الفتنة تقدم علي (عليه السلام) وكان يحمل لواء

الرسول (صلى الله عليه وآله)(1) فخاض غمار معركة حامية غير متكافئة، كان المسلمون خلالها يستغيثون ربهم طلباً للنصر فاستجاب لهم وأمدهم بالملائكة، وقد انتهت المعركة بمقتل سبعين رجلاً من المشركين كان مقتل حوالي نصف عددهم بسيف علي(2).

2 - وفي معركة أحد:

كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد أعطى لواء المهاجرين لعلي (عليه السلام) ولما اشتبك الطرفان كان النصر ابتداءً للمسلمين، بيد أن حماة جبل أحد الذين أمرهم الرسول (صلى الله عليه وآله) بعدم مفارقته تركوا أماكنهم بعد فرار المشركين بدافع الطمع في الغنائم، فصعدت إحدى فرق المشركين بقيادة خالد بن الوليد الجبل فتغير الموقف لصالح المشركين فخسر المسلمون الكثير من الشهداء.. وأصيب الرسول (صلى الله عليه وآله) بجروح في وجهه الكريم وكسرت رباعيته وحيث لم يبق مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) في ذلك الموقف الرهيب بعد فرار المسلمين غير علي (عليه السلام) وأبي دجانة وسهل بن حنيف استبسل علي (عليه السلام) كعادته في الدفاع عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومجد الرسالة الإلهية، وقتل حملة اللواء من المشركين واحداً بعد الآخر، وكانوا تسعة رجال ثمانية من بني عبد الدار وتاسعهم عبدهم(3). مما أربك العدو واضطره للفرار.

3 - وفي غزوة الأحزاب:

طوقت المدينة بعشرة آلاف من المشركين بشتى فصائلهم، ونقض بنو قريظة صلحهم مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) وانضموا إلى صفوف الغزاة، فتغير ميزان القوى لصالح العدو، وبلغ الذعر في نفوس المسلمين أيما مبلغ، فقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وزلزلت نفوس وظنت نفوس بالله الظنونا –كما حدثنا القرآن(4).

وبدأ العدو هجومه بعبور عمرو بن عبد ود العامري أحد أبطال الشرك الخندق مع بعض رجاله، فهددوا المسلمين في داخل المدينة بل في داخل تحصيناتهم.. وراح بن عبد ود يصول ويجول، ويتوعد المسلمين ويتفاخر عليهم ببطولته، ويستعلي وينادي:

هل من مبارز؟

فقام علي (على) وقال: أنا له يا رسول الله.

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): اجلس إنه عمرو!

وكرر ابن عبد ود النداء وجعل يوبخ المسلمين، ويسخر بهم يقول: أين جنتكم التي تزعمون، أن من قتل منكم يدخلها، أفلا تبرزون لي رجلاً؟

ولما لم يجبه أحد من المسلمين، كرر علي (علي) طلبه: أنا له يا رسول الله.

فقال (صلى الله عليه وآله): اجلس إنه عمرو!

فأبدى علي عدم اكتراثه بعمرو وغيره، قائلاً: وإن كان عمرو!!

فأذن رسول الله لعلي (عليه السلام) وأعطاه سيفه ذا الفقار، وألبسه درعه، وعممه بعمامته..

ثم قال (صلى الله عليه وآله) «اللهم هذا أخي وابن عمي، فلا تذرني فرداً، وأنت خير الوارثين»(5).

ومضى علي (عليه السلام) إلى الميدان، وخاطب ابن عبد ودّ بقوله: يا عمرو إنك كنت عاهدت الله، أن لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا قبلتها..

قال عمرو: أجل.

فقال علي (عليه السلام) فإني أدعوك إلى الله ورسوله (صلى الله عليه وآله) وإلى الإسلام.

فقال: لا حاجة لي بذلك.

قال له الإمام: فإني أدعوك إلى البراز.

فقال عمرو: إني أكره أن أهرق دمك، وإن أباك كان صديقاً لي..

فرد عليه الإمام (عليه السلام) قائلاً: لكني والله أحب أن أقتلك، فغضب عمرو، وبدأ الهجوم على علي (عليه السلام) فصده الإمام برباطة جأشه المعتاد، وأرداه قتيلاً، فعلا التكبير، والتهليل في صفوف المسلمين(6)..

ولما عاد الإمام (عليه السلام) ظافراً استقبله رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو يقول «لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ودّ، أفضل من عمل أمتي

إلى يوم القيامة»(7).

وبعد مقتل ابن عبد ودّ بادر علي (عليه السلام) إلى سد الثغرة التي عبر منها عمرو ورجاله الخندق ورابط عندها(8) مزمعاً القضاء على كل من تسول له نفسه العبور، ولولا ذلك الموقف البطولي لاقتحم جيش المشركين المدينة على المسلمين، بذلك العدد الهائل.

وهكذا كانت بطولة علي (عليه السلام) في غزوة الأحزاب أهم عناصر النصر للمعسكر الإسلامي، وانهزام المشركين.

4 - وفي غزوة خيبر:

عجز عليه القوم عن الصمود أمام اليهود، ولما بأن ضعف الجميع عن اقتحام حصون خيبر حتى تأخر فتحها أياماً قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كراراً غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه..»(9).

ولما كان الغد أعطاها علياً فاقتحم حصون خيبر ودخلها عليهم عنوة، وقتل بطلهم مرحباً ثم فتح الحصون جميعاً..

5 - غزوة حنين:

فرّ المسلمون فلم يبق مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) غير علي (عليه السلام)(10).

والعباس وبعض أهل البيت (عليهم السلام) فكان النصر بعد عودة المسلمين لميدان القتال.. وكان الظفر..

هذه صور يسيرة من مواقف الصمود التي سجلها الإمام علي (عليه السلام) بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) القائد في أدق الساعات وأكثرها حرجاً(11).

ومن نافلة القول أن نعيد إلى الأذهان أن علياً (عليه السلام) قد اشترك في حروب رسول الله جميعاً غير تبوك(12) وذلك بأمر من الرسول (صلى الله عليه وآله) بذاته، وكان له في جميعها القدح المعلى، هذا عدا الغزوات التي قادها بنفسه عليه السلام.

والباحث المنصف حين يتناول حياة الإمام علي (عليه السلام) بالدراسة وفي شطرها الجهادي بالذات يقف مذهولاً أمام بطولته الفريدة وتضحياته المعطاءة، لكن البطولة بما هي بطولة ليست هي الميزة في جهاد علي (عليه السلام) وإن كان ميدانها الواسع وشمولها يبقى سمة من سمات علي ولكن الأهم فيها إنما هو الإخلاص لله تعالى والتضحية في سبيله.

فإيمان علي (عليه السلام) بالله تعالى يبقى هو الحافز والمحرك لتلك

البطولات العظيمة التي سجلها تاريخ الإسلام في أنصع صفحاته بشكل لم يسجل مثلها سواه.

وحسبك في ذلك أن كثيراً من المواقف العسكرية – كما رأينا– يعترض فيها عليه القوم فضلاً عن عامتهم للهون بل والهزيمة النكراء غير أن التاريخ لم يسجل لعلي (عليه السلام) إلا الصمود والفداء والتضحية في كل موقف، صمد الناس فيه أم انهزموا، الأمر الذي لا يفسره إلا ما يتمتع به علي (عليه السلام) من صدق اليقين وعمق الاستعانة والتوكل على الله والعبودية له واللامبالاة بما سواه كبر ذلك أم صغر.

هذا عدا ما يتمتع به علي (عليه السلام) من علو الهمة وقوة العزيمة ورباطة الجأش وسمو النفس.

1 - أحمد بن يحيى البلاذري في أنساب الأشراف ج2 ص91 و 94 ط/1 سنة 1974 بيروت/ ومستدرك الصحيحين ج3 ص111/ وابن سعد في الطبقات ج3 ص15.

2 - حياة أمير المؤمنين/ محمد صادق الصدر ط2 سنة 1972 ص230.

3 - تاريخ الطبري ج3 ص17 وأحمد بن حنبل في الفضائل وابن هشام في السيرة النبوية ج3 ص 52 ودلائل الصدق/ الشيخ محمد حسن الظفر ج2 ص357 ط قم. وحياة أمير المؤمنين/ السيد الصدر ص236 وما بعدها والإرشاد للمفيد ص52.

4 - تراجع سورة الأحزاب 10.

5 - السيرة النبوية / أحمد زيني دحلان ج2 ص6 و 7 «غزوة الخندق».

6 - المصدر السابق.

7 - مستدرك الصحيحين 3 ص32 عن سفيان الثوري ورواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج3 ص19: نقلاً عن فضائل الخمسة ج1.

8 - السيرة النبوية لدحلان/ 2 ص6 و7«غزوة الخندق» أو إرشاد المفيد ص58.

9 - أنساب الأشراف ج2 ص93 و94 عن أبي هريرة وابن عباس بلفظ متشابه/ وخصائص علي بن أبي طالب للنسائي ص9 وما بعدها الطبعة الأولى 1975 بيروت وفي الإصابة والاستيعاب وحلية الأولياء ومسلم في الصحيح بألفاظ متقاربة.

10 - سيرة الرسول للسيد محسن الأمين نقلاً عن السيرة الحلبية وابن قتيبة في المعارف، وتفسير الميزان للسيد الطباطبائي ج10 (تفسير) آية 25 من التوبة والبحث الروائي والإرشاد للمفيد «غزوة حنين» ص81.

11 - للاستزادة يراجع كتاب الإمام علي/ عبد الفتاح عبد المقصود وأعيان الشيعة المجلد الثالث/ للسيد محسن الأمين والإرشاد للشيخ المفيد وسيرة ابن هاشم والفصول المهمة في معرفة الأئمة لابن الصباغ المالكي.

12 - راجع أنساب الأشراف للبلاذري ج2 ص92 ط1 1974، (ومستدرك الصحيحين ج3 ص111 وابن سعد في طبقاته ج3 ص10 وابن حجر في تهذيب التهذيب ج3 ص475) نقلاً عن فضائل الخمسة لمعرفة المزيد من المصادر ج2 ص309.

علي في منظار الإسلام

لم يحظ رجل في الإسلام ما حظي به علي بن أبي طالب (عليه السلام) من ثناء وإجلال من لدن الرسالة الإسلامية، وحثها المتزايد لاتباعها لا على تقديره فحسب، وإنما على التزامه، وانتهاج سبيله.

وقد انطوى القرآن الكريم والسنة الشريفة والتاريخ الصحيح على نصوص وروايات تنطق كلها بالثناء على علي (عليه السلام).

فمرة تأتي كأوسمة يضعها الإسلام على صدره فيميزه.

ومرة على شكل أحكام وأوامر تلزم المسلمين على التزام علي (صلى الله عليه وآله) إماماً ومنهجاً. فمن أوسمة التقدير التي نالها علي (عليه السلام) من الله تعالى ومن رسوله (صلى الله عليه وآله). نذكر ما يلي:

1 - (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) (الأحزاب–33).

وذهب المفسرون لهذه الآية أنها نزلت في رسول الله (صلى الله عليه وآله)

وعلي وفاطمة الزهراء والحسن والحسين (عليهم السلام) حين دعا الرسول (صلى الله عليه وآله) بعباءة وجللهم بها، ولها نزلت الآية قالت أم سلمة زوجة الرسول (صلى الله عليه وآله): هل أنا من أهل بيتك؟

قال: لا ولكنك على خير(1).

2 - (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدَعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِساؤَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وأَنْفُسكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِل فَنَجعَلْ لَعنَةَ اللهِ عَلَى الكاذِبِينَ) (آل عمران/61).

ذكر أهل التفسير من جميع المسلمين أنها نزلت حين خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام لمباهلة نصارى نجران، فلما رآه النصارى قد خرج بأهل بيته خافوا العاقبة واعتذروا عن مباهلته، فدفعوا الجزية خضوعاً منهم لسلطان دولته (صلى الله عليه وآله)(2).

3 - (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبهِ مِسكيناً وَيَتِيماً وأَسِيراً. إنَما نُطْعِمكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شكُوراً. إنَا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قُمْطَرِيراً. فَوَقيهُم اللهُ شَرَّ ذلِكَ اليَوْمِ وَلقَيهُمْ نَضرَةً وَسُرُوراً) (الدهر/ 8–11).

وهذه بإجماع أهل التفسير نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام).

وكان ذلك عندما مرض الحسنان فنذر علي (عليه السلام) وفاطمة وفضة إن شفي الحسنان، فإن علياً والزهراء وفضة يصومون لله تعالى ثلاثة أيام.

وبعد شفاء الحسنين صام أهل البيت (عليهم السلام).

وعند غروب شمس اليوم الأول طرق الباب عليهم مسكين يشكو جوعه، فأعطوه ما عندهم من خبز الشعير.

وفي اليوم الثاني استطعمهم يتيم فأطعموه..

وفي ثالث أيام النذر سألهم أسير فقدموا له طعامهم وهكذا بقي أهل البيت (عليهم السلام) ثلاثة أيام لم يذوقوا فيها غير الماء، فأنزل الله فيهم هذه الآيات الكريمة إعظاماً لشأنهم وإكباراً لعملهم(3) ليكونوا القدوة وليكونوا المثال.

4 - (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليوْمِ الآخِرِ وَجَاهَد فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتوُنَ عِنْدَ اللهِ واللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (التوبة/ 19).

نزلت هذه الآية عندما تفاخر طلحة بن شيبة والعباس بن عبد المطلب: إذ قال طلحة: أنا أولى الناس بالبيت لأن المفتاح بيدي!

وقال العباس: أنا أولى، أنا صاحب السقاية والقائم عليها وفي هذه الأثناء مرّ عليّ بهما وسألهما: بم يفتخران.

فذكرا له مقالاً.

فقال علي (عليه السلام): أنا أوتيت منذ صغري ما لم تأتيا.

فقالا وما ذاك؟

فقال (عليه السلام): لقد صليت قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله تعالى الآية المذكورة في الثناء على ما افتخر به علي (عليه السلام)(4).

وإذا كان القرآن الكريم يثني هذا الثناء الجميل على علي (عليه السلام) فتعال معي إلى السنة الشريفة لنقرأ شيئاً منها في هذا الصدد:

1 - قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أنا مدينة العلم وعلي بابها(5).

2 - وقال (صلى الله عليه وآله): «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»(6).

3 - وقال (صلى الله عليه وآله): مخاطباً علياً (عليه السلام) «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»(7).

4 - وقال (صلى الله عليه وآله) يوم المواخاة –بين المهاجرين والأنصار مخاطباً علياً (عليه السلام): «أنت أخي وأنا أخوك فإن ذكرك أحد فقل أنا عبد الله وأخو رسوله لا يدعيهما بعدك إلا كذاب»(8).

هذه طائفة من النصوص الخاصة بالثناء على علي (عليه السلام) ومن شاء المزيد فليراجع فضائل الخمسة من الصحاح الستة وينابيع المودة ومسند أحمد بن حنبل وفضائل أمير المؤمنين وأمانته من دلائل الصدق وغيرها.

أما النصوص القاضية بوجوب التزام علي (عليه السلام) إماماً وقائداً في دنيا المسلمين فنذكر منها ما يلي:

من فضائل الأمام علي (عليه السلام):

(إنّمَا وَلِيكُمُ الله وَرَسُولُه وَالّذِينَ أمَنُوا الّذِينَ يُقِيمون الصَلوةَ ويؤتُونَ الزّكوَةَ وهُم رَاكِعُونَ) (المائدة/ 55).

قال المفسرون إن الآية الكريمة نزلت في علي بن أبي طالب (عليه السلام)(9) فأكدت وجوب الالتزام به إماماً ومرجعاً فكرياً واجتماعياً وسياسياً للأمة، وقد كان سبب نزولها حين تصدق علي (عليه السلام) على مسكين بخاتمه أثناء ركوعه، فالآية إنما نزلت بهذا الصدد وهي تؤكد في ذات الوقت إمامة علي (عليه السلام)

خطبة الغدير:

وهي البيان الذي وجهه الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى المسلمين في غدير خم في آخر حجة له لبيت الله، فعن البراء بن عازب قال:

«أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم في السنة التي حج، فنزل في بعض الطريق، فآمر: الصلاة جامعة، فأخذ بيد علي فقال: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم»؟.

قالوا: بلى.

قال (صلى الله عليه وآله): ألست أولى بكل مؤمن من نفسه؟

قالوا: بلى.

قال (صلى الله عليه وآله): «فهذا ولي من أنا مولاه، اللهم وال من والاه، اللهم عاد من عاداه»(10) وفي لفظ أحمد بن حنبل أن رسول الله (صلى الله عليه وآله)

قال (من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»(11).

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) «علي مع الحق والحق مع علي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»(12).

وفي حديث آخر لرسول الله (صلى الله عليه وآله) يخاطب به عمار بن ياسر (ر5) جاء فيه «.. وإن سلك الناس كلهم وادياً وسلك علي وادياً فأسلك وادياً سلكه علي وخلّ الناس طراً..»(13).

وقال (صلى الله عليه وآله):

«لكل نبي وصي ووارث وأن علياً وصي ووارثي»(14).

هذا غيض من فيض من النصوص الإسلامية الموثوقة المجمع على صحتها، ووثاقتها من جميع المسلمين(15).

1 - راجع صحيح مسلم في كتاب فضائل الصحابة، والحاكم في مستدرك الصحيحين ج3 ص147 والبيهقي في سنة ج2 ص149 والسيوطي في الدر المنثور في تفسير الآية، وصحيح الترمذي ج2 ص209 وابن حجر في تهذيب التهذيب ج2 ص297 وغيرهم نقلاً عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج1 ص224 وما بعدها.

2 - صحيح الترمذي ج2 ص300 وأحمد بن حنبل في المسند ج1 ص185 والسيوطي في الدر المنثور في تفسير آية المباهلة والزمخشري في كشافه والفخر الرازي في تفسير الكبير وغيرهم نقلاً عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة ص244 وما بعدها.

3 - يراجع الزمخشري في كشافة ج2/ والواحدي في أسباب النزول/ ومجمع البيان للطبرسي في تفسير سورة الدهر/ والحافظ محمد بن جرير الطبري كما في الكفاية/ وابن عبد ربه في العقد الفريد ج/3 ص42 - 47/ والحاكم النيسابوري ذكره في مناقب فاطمة (عليها السلام) كما في الكفاية/ وأبو إسحاق التغلبي في تفسيره «الكشف والبيان»/ والألوسي في روح المعاني/ والطبري في الرياض النضرة ج2 ص207/ نقلاً عن الغدير للشيخ الأميني ج3 ص107 - 111.

4 - تفسير الطبري عن أنس ج10 ص59/ وأسباب النزول للواحدي ص182/ والقرطبي في تفسيره ج8 ص91/ والرازي في تفسيره ج4 ص422/ والخازن في تفسيره ج3 ص221/ وأبو البركات النسفي ج2 ص221/ والدر المنثور للسيوطي ج3 ص218/ وغيرهم مع اختلاف في التفاصيل والألفاظ.

5 - مستدرك الصحيحين ج3 ص126/ ومناقب أحمد بن حنبل وأبو عيسى الترمذي في جامعة الصحيح/ وكنز العمال ج6 ص401/ وأسد الغابة ج4 ص22/ والخطيب البغدادي في تاريخه ج4 ص348: نقلاً عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج2 ص250 وما بعدها.

6 - مسند أحمد بن حنبل ج1 ص174/ ومسند أبي داود ج2 ص28 والبخاري في باب غزوة تبوك ومسلم الترمذي وغير هؤلاء نقلاً عن المراجعات ص133 - ص136.

7 - صحيح الترمذي ج2 ص229/ وأحمد بن حنبل ج6 ص292/ والنسائي ومستدرك الصحيحين ج3 ص129 وغيرهم راجع فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج2 ص207 وغيره.

8 - صحيح ابن ماجة وصحيح الترمذي ج2 ص299/ والنسائي في الخصائص ص3 و18 ومستدرك الصحيحين ج3 ص14/ ومسند أحمد بن حنبل ج1 ص159 وغيرها مع اختلاف في الألفاظ يسير.

9 - تفسير البيضاوي/ ومجمع البيان للطبرسي/ وأبو إسحاق الثعلبي في تفسيره/ والطبري في تفسيره ج6 ص165/ والواحدي في أسباب النزول ص148/ والخازن في تفسير ج1 ص496/ والرازي في تفسيره ج3 ص431/ وأبو البركات النفسي ج1 ص496/ والنيسابوري في تفسيره ج3 ص461/ وابن حجر في الصواعق ص25 وغيرها نقلاً عن: أعيان الشيعة ج3 ق1 ص130 - ص134 وخلفاء الرسول الإثنا عشر ص103 وما بعدها.

10 - اللفظ لصحيح ابن ماجة ص12.

11 - مسند ابن حنبل ج4 ص281، فقد نص عليه قائلاً رواه ثلاثون صحابياً، وأخرجه أيضاً النسائي في خصائص علي ابن أبي طالب بعدة طرق والترمذي والطبراني/ عن زيد بن أرقم والفخر الرازي في تفسير آية «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك» وكنز العمال ج1 ص48/ ومستدرك الصحيحين وسواهم. نقلاً عن كتاب الغدير تأليف العلامة الأميني - أمير 5 - ج1.

12 - تاريخ البغدادي ج14 ص321/ والهيثمي في مجمعه ج7 ص235/ وكنز العمال ج6 ص157/ وتفسير الرازي ج1 ص111/ وغيرهم مع اختلاف في الألفاظ. نقلاً عن علي والوصية ص113.

13 - تاريخ الخطيب البغدادي ج13 ص186/ والهيثمي في مجمعه ج7 ص236 وكنز العمال ج6 ص155 مع اختلاف يسير في الألفاظ.

14 - ينابيع المودة سليمان الحنفي «باب عهد النبي لعلي وجعله وصياً» والذهبي في ميزان الاعتدال والسيوطي في اللئالىء والديلمي في كنوز الدقائق ومناقب أحمد بن حنبل وكنز العمال ج6 ص154 والمعجم الكبير للطبراني والمحب الطبري في الذخائر وغيرهم نقلاً عن علي والوصية لنجم الدين العسكري 194.

15 - «ومن شاء المزيد فليراجع ينابيع المودة/ للشيخ القندوزي الحنفي والفصول المهمة لابن الضباع المالكي وفضائل الخمسة من الصحاح الستة للفيروز أبادي ومسند أحمد بن حنبل وكتاب المراجعات للسيد عبد الحسين شرف الدين وعلي والوصية للشيخ نجم الدين العسكري وغيرها.

خاتمة

هذه أمثلة يسيرة مما كان ينهض الإمام علي (عليه السلام) به من مسؤوليات عظيمة في عهد الخلفاء، وكان دافعه في ذلك الإخلاص للرسالة وحفظ الوحدة الإسلامية وحماية المسيرة الإسلامية من الانحراف.

ولقد تنبه الخليفة الثاني إلى أهمية ما يقوم به علي (عليه السلام) في هذا المضمار، فصرح مراراً مشيداً بذلك الفضل، ومنوهاً بأهميته في مسيرة الخلافة كقوله: «أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن»(1)، وغير ذلك.

1 - الدر المنثور للسيوطي ج3 ص144 وسيرة عمر لابن الجوزي ص106 والفتوحات الإسلامية لدحلان ج2 ص486 وغيرها، نقلاً عن علي والخلفاء للشيخ نجم الدين العسكري ومناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ج2 والغدير ج6 وج7، وعجائب أحكام أمير المؤمنين للمفسر الجليل محمد بن إبراهيم القمي.